

## الفصل الرابع

# موت الكاهن

في اليوم السادس من حصارنا اختلست النظر للمرة الأخيرة من الفتحة، وعندها وجدت نفسي وحيداً. بدلاً من بقاء الكاهن بالقرب مني ومحاولة إبعادي عن الفتحة، فإنه عاد إلى حجرة غسل الآنية. داهمتني فكرة مفاجئة. عدت بسرعة وهدوء إلى حجرة غسل الآنية، ووسط الظلام سمعت الكاهن يشرب. انتزعت منه ما كان يشربه في الظلام، ووجدت بين أصابعي زجاجة خمر.

تصارعنا بضع دقائق. سقطت الزجاجة على الأرض وانكسرت، وتوقفت أنا، ثم نهضت. وقفنا نلهث وكلانا يهدد الآخر. في النهاية وقفت حائلاً بينه وبين الطعام، وأخبرته عن نيتي لأن نضع نظاماً جديداً. قَسَمْتُ الطعام في حجرة المُون إلى حصص تكفيها عشرة أيام. لم أكن لأسمح له بتناول المزيد من الطعام ذلك اليوم. بعد الظهرية حاول دون جدوى أن يصل إلى الطعام. كان النعاس قد غلبني، لكنني استيقظت في لحظة. طوال النهار وطوال الليل ونحن نجلس وجهًا لوجه؛ أنا منهك ولكن ثابت العزم، وهو يبكي ويتذمر من شعوره بالجوع. أعرف أنه لم يمر علينا ونحن هكذا سوى نهار وليل، لكنهما بدوا لي — حسبما يبدو لي الآن — أمداً لا نهاية له.

وهكذا انتهى تنافرنا المتزايد باصطدام صريح. وعلى مدار يومين طويلين نشبت بيننا نزاعات خفيضة الصوت فيها شيء من التصارع. كانت ثمة أوقات أضربه فيها وأركله بجنون، وأوقات أداهنه وأقنعه، ومرة حاولت رشوته بأخر زجاجة خمر لدينا، إذ كانت هناك مضخة لمياه الأمطار يمكنني الحصول على الماء منها، لكن لا القوة أفادت ولا اللين أفاد؛ فقد تجاوز الرجل حدود العقل. لم يتوقف عن هجماته على الطعام ولا عن تمتته الصاخبة بينه وبين نفسه. لم يراع الاحتياطات الأولية التي تجعل من محبسننا

مكاناً محتملاً للبقاء. شيئاً فشيئاً بدأت أدرك أنه فقد عقله تماماً؛ بدأت أدرك أن رفيقي الوحيد في تلك الظلمة البغيضة رجل مجنون.

تحضرني الآن ذكريات ضبابية محددة تجعلني أميل إلى الاعتقاد بأن عقلي كان يشتت في بعض الأوقات. كانت تراودني أحلام غريبة بشعة كلما غفت عيناى. قد يبدو أن في الأمر تناقضاً، لكنى أميل إلى الاعتقاد بأن ضعف الكاهن وذهاب عقله حذراني وثبَّتاني وحافظا على سلامة عقلي.

في اليوم الثامن بدأ يتحدث بصوت مرتفع بدلاً من الحديث همساً، ولم أفلح بأي وسيلة في حمله على خفض صوته.

أخذ يردد مراراً وتكراراً: «إنه العدل، يا إلهي! إنه العدل. العقاب ينزل عليّ. لقد أذنبنا، وأخفقنا. كان هناك فقر وبلوى؛ الفقراء دُفِنوا في التراب، وأنا التزمت الصمت. وعظتُ الحمقى ... يا إلهي، كم كنتُ أحمق! عندما كان يتعين علي أن أصمد وأن أدعوهم كي يتوبوا ... يتوبوا! ... ظالمو الفقراء والمحتاجين ...! معصرة غضب الله!»

بعدها يعود فجأة إلى موضوع الطعام الذي منعه منه فيناشد ويتوسل ويبكي وأخيراً يهدد. بدأ يرفع صوته، ورجوته ألا يفعل. أحسّ أن بوسعه التحكم في؛ فهددني بأنه سيصرخ ويحضر المريخين إلى هنا. أفزعني ذلك بعض الوقت، لكن أي تنازل من جانبي كان سينتقص من فرصة هروبنا إلى حد لا يوصف. تحديته، مع أنني كنت أشك أنه سينفذ تهديده. لكنه لم يفعل شيئاً في ذلك اليوم. كان يتحدث وصوته يرتفع شيئاً فشيئاً طوال الجزء الأكبر من اليومين الثامن والتاسع ... كان يطلق تهديدات وتوسلات ممزوجة بكثير من الهديان، وعلى الدوام كان يتحدث بندم أخرق على زيفه في خدمته للرب، وهو ما جعلني أشفق عليه. غلبه النعاس برهة، ثم بدأ ثانية بقوة جديدة وبصوت عال حنم علي إيقافه.

ناشدته: «هلا التزمت الصمت!»

وقف على ركبتيه، إذ كان جالساً في الظلام بجوار الرجل.

قال بنبرة من المؤكد أنها وصلت الحفرة: «أنا صامت منذ حين، والآن لا بد لي من الإبداء بشهادتي. الويل لتلك المدينة الظالمة! الويل! الويل! الويل! الويل! الويل لسكان الأرض بسبب الأصوات الأخرى للبوقة ...»

قلت: «أخرس!» ونهضت، وفي ظل فزعي من أن يسمعنا المريخيون أضفت:

«أستحلفك بالله ...»

صاح الكاهن: «كلا، تكلم! حقَّت عليّ كلمة الرب!»

في ثلاث خطوات وصل إلى الباب المؤدي إلى المطبخ.

«لا بد لي من الإبداء بشهادتي! أنا ذاهب! لقد تأخرت كثيراً.»

مددت يدي، وشعرت بساطور اللحم معلقاً على الحائط. تبعته في غمضة عين. كنت نائر الأعصاب من شدة الخوف. قبل أن يصل إلى منتصف المطبخ، باغته. ويلمسه إنسانية أخيرة، أدت النصل وضربته بمؤخرة الساطور. تمدد على وجهه على الأرض. تعثرت فيه ووقفت ألهث. كان جامداً بلا حراك.

فجأة سمعت ضوضاء في الخارج — تفتت وتهشم الجبس المتداعي — وأظلمت فتحة الحائط المثلثة. رفعت بصري، ورأيت السطح السفلي من إحدى الآلات القابضة يقترب شيئاً فشيئاً من الفتحة. التوى أحد أطرافها القابضة وسط الحطام، وظهر طرف آخر يتحسس طريقه فوق العوارض المتداعية. وقفت مبهوئاً أحدق النظر. بعدها رأيت من خلال شيء أشبه بطبق زجاجي بالقرب من طرف الجسم وجه — مثلما قد نسميه — المريخي، وعيناه السوداوان الكبيرتان تختلسان النظر، ثم ظهر مجس معدني طويل يشبه الأفعى يتحرك ببطء عبر الفتحة.

استدرت بصعوبة، وتعثرت في جثة الكاهن، وتوقفت عند باب حجرة غسل الآنية. كان المجس بعيداً بعض الشيء — على مسافة مترين أو أكثر — في الحجرة، يتلوى ويستدير بحركات مفاجئة غريبة في هذا الاتجاه وفي ذاك. في البداية وقفت مذهولاً من تلك الحركة البطيئة المتقطعة. وبعدها وبصرخة جشاء خافتة دفعت نفسي عبر حجرة غسل الآنية. ارتجف جسدي بعنف؛ حتى كدت لا أستطيع الوقوف منتصباً. فتحت باب قبو الفحم، ووقفت هناك في الظلام أحدق في مدخل المطبخ خافت الإنارة وأنا أرفف السمع. هل رأني المريخي؟ ماذا هو فاعل الآن؟

كان شيء يتحرك هناك جيئةً وذهاباً بهدوء بالغ، وبين الحين والحين كان يقرع الجدار أو يبدأ تحركه بصوت رنين مدو خافت كحركة المفاتيح في حلقة المفاتيح. ثم سُحب جسم ثقيل — عرفت ماهيته جيداً — عبر أرضية المطبخ نحو الفتحة. لم أستطع المقاومة، فتسللت إلى الباب، واختلست النظر إلى المطبخ. وفي ضوء الشمس الساطع في الخارج رأيت المريخي — داخل آتته القابضة — ينعم النظر في رأس الكاهن. فكرت على الفور أنه سيسنتج وجودي من أثر الضربة التي سدتها للكاهن.

زحفت عائداً إلى قبو الفحم، وأغلقت الباب، وبدأت أعطي نفسي قدر استطاعتي بهدوء وسط الظلام بين أخشاب الوقود والفحم هناك. بين الحين والآخر كنت أتوقف جامداً في مكاني لأسمع ما إذا أدخل المريخي مجساته عبر الفتحة مجدداً. عاد الرنين المعدني الخافت مرة أخرى. تعقبته ببطء وهو يتحرك داخل المطبخ. بعد قليل سمعته في مكان قريب؛ حجرة غسل الآنية حسبما ظننت. خيّل إلي أن طوله ربما لا يكون كافياً للوصول إلي. أطلقت الدعاء. تحرك ذلك الشيء يחדش باب القبو بصوت خافت. تلا ذلك أمد من قلق لا يطاق، ثم سمعته يتحسس المزلاج! لقد وجد الباب! المريخيون يعرفون الأبواب!

أمسك بالمزلاج دقيقة، ثم فُتح الباب.

في الظلام استطعت بالكاد رؤية ذلك الشيء — شديد الشبه بخرطوم الفيل أكثر من أي شيء آخر — يتحرك في اتجاهي ويلمس ويفحص الجدران والفحم والخشب والسقف. كان شبيهاً بدودة سوداء تميل برأسها العمياء هنا وهناك.

في إحدى المرات لمس كعب حذائي. كنت على شفا الصراخ؛ فعضضت على يدي. ظل المجلس صامتاً فترة. ظننت أنه قد تقهقر، لكن بعد فترة قصيرة وبطقطقة مفاجئة أمسك شيئاً — ظننته أنا! — وبدا أنه خرج من القبو ثانية. ظل الشك يعتريني هنيهة. من الواضح أنه أخذ كتلة من الفحم كي يفحصها.

انتهزت الفرصة، وغيّرت مكاني قليلاً، ثم أنصتُ. همست بدعاء من القلب طلباً للأمان.

بعدها سمعت الصوت الموزون البطيء يتسلل نحوي مجدداً. اقترب مني شيئاً فشيئاً يחדش الجدران ويقرع قطع الأثاث.

وبينما لا يزال الشك يعتريني، قرع المجلس باب القبو بخفة وأغلقه. سمعته يدخل حجرة المؤن، وسمعت قعقة علب البسكويت وانكسار إحدى الزجاجات، وبعدها صوت ارتطام مدوّ عند باب القبو، تلاه صمت تحول إلى حال من الترقب لا نهاية له.

أتراه رحل؟

أخيراً قررت أنه رحل.

لم يدخل حجرة غسل الآنية مرة أخرى، لكنني رقدت طوال اليوم العاشر في الظلام مدفوناً بين الفحم وخشب الوقود لا أجرؤ حتى على الخروج من أجل الحصول على شراب كنت أتعطش للحصول عليه. وفي اليوم الحادي عشر جازفت بالخروج من مكمني.